28 تونى موريسون

«أنا لا أريد أن تكون الكلمة الأخيرة للقوى السياسية والتاريخية والعنصرية، فللبشر خيال، وبالتالى فهم مرتبطون بالعالم على مستوى ذاتى مُدهش، إن ذلك بالضبط، هو ما يجعل الحياة أكثر إنسانية».

الكاتبة الأمريكية السوداء، التى فازت بجائزة نوبل فى الأدب عام 1993 م، والتى تمتلك مقدرة إبداعية وأسلوباً شاعرياً يحاول رسم جانب مجهول من واقع المجتمع الأمريكى المُعاش.

تمهيد :

تعاطف الكُتَّاب البيض مع الزنوج فى أمريكا :

للزنوج علاقة طويلة ومتطورة بتاريخ الأدب الأمريكى، فالأدباء الأمريكيون البيض اتخذ معظمهم مواقف متعاطفة مع الزنوج . فنجد شاعراً مثل «جون جرينليف هويتيار» (1907م - 1892م) يبرز كأهم شعراء الحملة على الرق، ويُبدى قوة خارقة فى تكريس قرابة ثلاثين عاماً من حياته لحملات الإصلاح . وعندما أصدر الرئيس الأمريكى «إبراهام لنكولن» إعلان تحرير العبيد فى عام 1863م إبان الحرب الأهلية الأمريكية التى استمرت من أعوام 1861 - 1865، شعر «هويتيار» أن قضيته قد انتصرت واحتفل بالنصر فى عبارات تُضاهى الإعلان قوة فى قصيدته «لوسى ديو» .

كما نجد كاتبة مثل «هاريت بيتشرستو» (1811 - 1896م) تنفق معظم أرباحها من روايتها «كوخ العم توم» التى نشرت فى عام 1852م على شراء العبيد وإطلاق سراحهم، وإنشاء المنازل والملاجئ لهم . وكان السبب المباشر الذى دفعها إلى كتابة هذه الرواية أنَّها رأت فى صباح يوم من أيام الآحاد عام 1851م رجلاً من البيض يأمر عماله بجلد عجوز أسود اشتعل رأسه شيباً، وظلّ العمال يجلدونه حتى فاضت روحه وهو يبتهل إلى الله أن يغفر لجلاديه . ولقد كان لروايتها من التأثير حتى أن «إبراهام لنكولن» قال باسماً وهو يُصافحها لأول مرَّة : أهذه أنتِ أيتها السيدة الصغيرة التى سببت كل هذه الحرب الكبيرة

ومن الكُتَّاب البيض المتعاطفين مع الزنوج نذكر أيضاً الكاتب المسرحى الشهير «يوجين أونيل» (1888 - 1953م) فى مسرحيته «الإمبراطور جونز» عام 1920، و«شيروود آندرسون» (1846 - 1941م) فى روايته «الضحك القاتم» عام 1925م.

أبرز الكُتَّاب السود فى الأدب الأمريكى المُعاصر :

أدت الحرية النسبية التى حصل عليها السود فى أمريكا إلى بروز أدباء - ثم أديبات - من بينهم على سبيل المثال «هال أليسون» فى قصته «ديوك» وهو فتى زنجى من هارلم لا يتعدى الخامسة من عُمْره، احترف الجريمة وهو فى سن مبكرة، لأنَّه يعرف أنَّه لابد أن تكون رجلاً أبيض حتى تحصل على ما تريد . فالأطفال البيض يحصلون على كل شىء، والرجال البيض يشرفون على كل شىء، إنَّهم يمتلكون العالم .

أمَّا «ريتشارد رايت» (1908 - 1960م) فلعلّ أبرز رواياته «صبى أسود» التى نشرت فى عام 1940م، وسيرته الذاتية «ابن البلد» التى نُشرت عام 1945م، إلى جانب روايات أُخرى مثل : «أبناء العم توم» ومجموعات قصصية كلّها تتناول قضية الزنوج الأمريكان وبؤسهم ودفعهم للجريمة بسبب وضعهم الأدنى والمتدنى.

كذلك تعتبر رواية «الرجل الخفى» التى نشرها الكاتب الزنجى المُعاصر «رالف أليسون» فى عام 1952م وهو يقصد من عنوان روايته الزنجى الأمريكى الذى يُريد أن

يعيش وأن يشعر المجتمع بوجوده، لكن المجتمع يتجاهله، فهو إذًا رجل خفى وبطله يُعلن ذلك صراحة : «إنني خفى، أجل خفى لأن الناس يرفضون رؤيتى ..». ويصف «أليسون» كيف انتقم بطله من هذا المجتمع الذى يتعمد عدم رؤيته، كيف سرق وضرب وحطم حتى يُحس الناس بوجوده . لكنهم رفضوا أن يشعروا .

الكاتبات السود أصبحن ظاهرة أدبية مُتفرِّدة :

الكاتبات الزنجيات أصبحن ظاهرة أدبية مميَّزة فى فترة السبعينيات والثمانينيات من القرن المنصرم، استطعن جميعاً أن يسحبن البساط من الروائيين الآخرين، الذين بدوا كأنهم قد سيطروا على الساحة الأدبية، خاصَّة الأدباء اليهود، الذين لعبت وسائل الإعلام الصهيونية دوراً ملحوظاً فى صنع شهرتهم .

هناك الآن فى الولايات المتحدة مجموعة كبيرة من الكاتبات الزنجيات اللائى سابقن غيرهن، وتسابقن فى الحصول على الجوائز الأدبية . وهن ينتمين جميعاً إلى الحركة النسائية، التى تُناضل مع موقف المرأة من قضايا المجتمعات المحلية والعالمية، وأيضاً تنادى بأن على المرأة أن تُعامل كمخلوق له واجباته، وعليه حقوقه، وليس كشىء يمتثل لأوامر الرجال .

من هؤلاء الكاتبات، المؤلِّفة المسرحية «لورين هانسبيرى» صاحبة مسرحية «زبيبة فى الشمس»، و«مايا أنجلو»، و«مارجريت ووكر»، ثم «جوليا تايلور»، و«نزوياك شانج»، و«أودرى لورد»، و«جيل جونز» وغيرهن من الأسماء .

أمَّا أشهر الكاتبات الزنجيات خارج حدود الولايات المتحدة الأمريكية هى «إليس ووكر»، وهى روائية وشاعرة وكاتبة مقال، ولدت فى أسرة صغيرة، وهى صديقة الطفولة للأديبة «تونى موريسون»، عُرفت بنضالها من أجل الحقوق المدنية لزوجها. وبدأت حياتها الأدبية بديوان شعر عام 1986 م تحت عنوان«مرَّة»، وقد ارتبطت بحركات تحرير عربية من أجل إفريقيا، وأيضاً دافعت عن الهوية «الجنوبية» فى روايتها «نبات البطونية الثائر» عام 1971م، ومن بين أعمالها المهمة «البحث عن جنات أمهاتنا» وهو كتاب عن إبداع المرأة الزنجية فى أمريكا .

تونى موريسون .. الميلاد وذكريات الطفولة :

ولدت الروائية الأمريكية «كوليه أنطونى ودفورد» (المعروفة أدبياً باسم تونى موريسون) فى 18 من فبراير عام 1931م، بمدينة «لورين» بولاية «أوهايو»، جنوب الولايات المتحدة الأمريكية . وقد حملت اسم «موريسون» من زوجها الأول الذى اقترنت به فى الجامعة .

كان والدها يعمل فى ثلاثة أماكن مختلفة فى الوقت نفسه ليعول أُسرته، وهو أحد الذين هربوا من مناخ العبودية العنصرى فى الجنوب الأمريكى ليستقر فى «لورين»، وكان الانتماء الطبقى فى تلك المدينة أكثر أهمية من الانتماء العرقى .

تتحدث «تونى موريسون» عن سنوات الطفولة تلك قائلة : «كنا نسكن مدينة صغيرة فى ولاية أوهايو، كان أبى عاملاً بسيطاً، وكم افتقدنا المال . ولكننى لم أُجرب أبداً الإحساس أننى أعيش فى مأساةٍ. وكان جيراننا القادمون من كل الأنحاء مثلنا لذا سرعان ما توحدنا معا!!

لم تدرك «تونى موريسون» مُعاداة والدها للبيض إلاَّ فى عُمْر السابعة عشر عندما تبعها سكير أبيض حتى اقتحم منزلها، فتصدى له والدها ودفعه ليتدحرج على سُلم البيت . فى تلك اللحظة ودعت «تونى» مرحلة الطفولة !!

استيعاب التراث الزنجى .. ونهم القراءة :

نشأة «تونى موريسون» مكنتها من استيعاب التراث الزنجى فى مجال الموسيقى والخرافات والأساطير والمناخ الثقافى لأسرتها، فجدها كان عازف كمان، وأمّها ترتل فى جوقة الكنيسة وتفسِّر الأحلام . وتناقل حكايات الأشباح والأرواح أمرٌ شائعٌ بين أفراد أسرتها . بالإضافة إلى قراءتها لعيون الأدب الإنجليزى والفرنسى والروسى وهى ما تزال فى سن المراهقة .

فى مجلة «لونوفيل أوبسرفاتور» الصادرة بتاريخ 2 من يوليو 1992 م تقول «تونى موريسون» إنَّها كانت تقضى أغلب وقتها وهى طفلة فى المكتبة.

فى ذاكرتها يعيش حريق لم يُخمد بعد !!

وفى ذاكرة «تونى موريسون» حريق حكت عنه فيما بعد بألم عميق . كانت فى الثانية من عُمْرها، وبسبب الفقر والعوز تأخر والدها فى تسديد إيجّار المسكن، وكان أربعة دولارات، فما كان من صاحب العقار إلاّ أن يُشعل النار بالمنزل وساكنيه وهم بداخله!! عندما تتذكر «تونى موريسون» ذلك اليوم الفاجع، يعاودها شعور عميق بالألم والاكتئاب، تتساءل فى حزنٍ : كم تساوى حياتك ؟ هل من أجل أربعة دولارات يقوم شخص بإضرام النار فيك ؟!

تقول «تونى موريسون» : «كان شيئاً هستيرياً، غير عادى، نوعاً غريباً من البشّر، فإذا تأملته، فلا محال من إصابتك بالاكتئاب لأنَّ هذه هى قيمة حياتك . فمن أجل أربعة دولارات فى الشهر يمكن أن يحرقك شخص ما تحت الرماد .

لم يُخامر تونى موريسون الشعور بالنقص كونها فتاة سمراء البشرة!!

فى المدرسة العليا - حيث يدرس البيض والسود معاً - كانت «تونى موريسون» تساعد أطفال المهاجرين الأوروبيين على القراءة . ونتيجة لذلك فإنَّها لم تقم اعتباراً لموضوع الفصل العنصرى، لهذا كتبت رواية «العين الأشد زرقة» The Bluest Eye، ولذا فإنَّها تقول : «لم يخامرنى أبداً شعور بالنقص، وكنت أعتقد أننى موضع اهتمام . وجدة والدى التى كانت موضع ولاء الأسرة كلّها - كانت أحلك النساء سواداً - لكن كانت لها مكانة مرموقة عند الجميع، لهذا لم أعرف أن اكتساب بشرة بيضاء، يمكن أن يُعطى أية ميزة إلى أن التحقت بجامعة هوارد».

وكانت واشنطن فى عام 1940م مدينة مليئة بالمدارس العليا التى كانت تتم فيها التفرقة بين الطلبة على أساس اللون، ومع ذلك فإن جامعة هوارد - بالرغم من أنَّها جامعة للسود، كانت قليلة الاهتمام بالبحث فى تاريخ السود وثقافتهم. وقد قوبل بالسخرية اقتراح «تونى موريسون» أن تقدم بحثاً عن الشخصيات السوداء فى مسرح «وليم شكسبير» .

حصلت «تونى موريسون» على الليسانس فى اللغة الإنجليزية من جامعة هوارد

بالعاصمة واشنطن فى عام 1953م، ثم على درجة الماجستير من جامعة كورنيل عام 1955م.

وفى الستينيات بدأت الكتابة الإبداعية، وكانت تحرص على حضور اللقاءات الأدبية فى العاصمة الأمريكية، وفى أحد هذه اللقاءات قرأت وناقشت قصة قصيرة لها عن فتاة سوداء كانت تتوق إلى أن يكون لها عيون زرقاء .. وقد تحوَّلت هذه القصة فيما بعد إلى رواية .. أول رواية .

وما إن أحست أن عليها أن تكون أديبة حتى شدت رحالها إلى نيويورك، مدينة الفن والأدب، فى عام 1964م . وقد أتاح عمل «تونى موريسون» كمحررة فى دار «راندوم» نشر العديد من الروايات الزنجية الأمريكية لكُتَّاب مثل : «أنجيلا ديفيز»، و«تونى كيد بامبارا»، و«هنرى ديماس»، و«جيل جونز» بصفتهم زنوجاً يتحدثون إلى زنوج .

عالم تونى موريسون الروائى :

رواية : العين الأشد زُرقة ..

قصة فتاة سوداء تتمنى أن تصبح شقراء مثل شيرلى تمبل !!

كانت أول أعمال «تونى موريسون» الإبداعية دراسة حول ظاهرة الانتحار فى أدب «وليام فوكنر» و «فرجينيا وولف» . وفى عام 1970 م نشرت روايتها الأولى «العين الأشد زرقه»، عندما أصبحت مُطلقة ولها طفلان، خلال تلك الفترة عملت عند أحد الناشرين، وفى الأمسيات عندما يستغرق طفلاها فى النوم كانت تكتب فصول الرواية، تقول «تونى موريسون» عن هذه التجربة المثيرة : «إن الكتابة أضفت على حياتى معنى لم يضفه شىء آخر .. فالكتابة تجعل الأشياء تتماسك معاً . لقد كنت امرأة أعيش وحيدة مع طفلي، لهذا كتبت هذه الرواية «العين الأشد زُرقة» لنفسى، ..

فى هذه الرواية نرى صبية قزمة سوداء تحاول أن تكون شقراء الشعر والبشرة، زرقاء العينين، بأى ثمن، فهى مبهورة بالأطفال البيض وبأعينهم الملونة . وترى هذه الصبية أن الناس يتم تمييزهم حسب ألوان الشعر والعيون . وهى تتمنى أن تنام وتصحو لتكون مثل «شيرلى تمبل» . هذه الفتاة تُدعى «بيكولا بريدلف» أو خبز الحب الصغير كما هو

اسمها بالإيطالية والإنجليزية، تغرق «بيكولا» فى دياجير الجنون وتتخيَّل نفسها تعيش فى عالم يُصبح فيه الحب هبة، أمَّا الحب الوحيد المجانى فهو حب المحارم . وتصف «موريسون» كيف تغوص الفتاة فى هذا العالم، وهى لا تعرف ماذا ينتظرها من مصير غامض!!

رواية : سولا .

فتاة تبحث عن الحب فلا تجده، تبحث عن دور فتمارس التمرُّد !!

فى رواية «سولا» التى صدرت عام 1974 م من القرن المنصرم، والتى أصبحت التعويذة بالنسبة للحركة النسائية، نرى فتاة زنجية تدعى «سولا بيس» والاسم هنا له معناه، فاسم العائلة «سلام» الذى تحمله البطلة يدل على ما تفتقده من صفاء . وهى فلاحة من ولاية أوهايو، تمثل الفتاة آخر أبناء الجيل الثالث من زنوج أمريكا الذين عانوا الكثير من الاضطهاد العنصرى ولذا فهى امرأة متحررة تفتقد القدرة أن تكون محبوبة، أو عاشقة . وهى فتاة قزمة، تعيش فى عالم غريب عنها، وبسبب لونها وحجم جسمها، فإنَّها تنشد الصفاء . و«سولا» تبحث عن حب منشود ولكن بلا جدوى، وفى وحدتها التى تعيشها فى قريتها الصغيرة بالجنوب الأمريكى يمكن لمثل هذه المرأة أن تكون فريسة لخضم لا ينتهى من البشر، وتروح «سولا» من أجل أن تخرج من وحدتها القاسية تبحث لنفسها عن دور لتمارس التمرُّد، وتدافع عن حق المرأة الزنجية على وجه الخصوص، وعن الزنوج على وجه العموم . وهى تعيش مع جدتها وأمها، وهما يمثلان جيلين مختلفين لذلك فهناك دائماً مواجهات ساخنة .

كما أن «سولا» ترتبط بفتاتين من نفس سنها، ولونها . تحاول من خلال الاتصال الحسى والوجدانى مع واحدة منهما هى «نيل» أن تنسى متاعبها، فالرجل الزنجى لا يميل عادة إلى امرأة من نفس لونه، كما ترى، ولذا فإن العنف هو البديل للحبِّ فى هذا العالم .

ونساء «تونى موريسون» فى هاتين الروايتين يتمتعن بجمالٍ وغريزة متقدة ومع ذلك فإنهن يُعانين من افتقادٍ ملحوظ لعلاقة كاملة مع طرف آخر .

وفى هذه الرواية هناك بذور العنف الشديد الذى يعرفه المجتمع الأمريكى، خاصة فى الجنوب، فهناك امرأة تزرع فى نفس ابنتها رغبة الانتقام فى حرق ما حولها تحت ادعاء أنَّه ما أمتع أن تتحوَّل الأشياء إلى أطلال !!

رواية : أنشودة سليمان :

قصة زنجى يعيش محاولة يائسة لنسيان سنوات عبوديته !!

وهى رواية نشرتها فى عام 1977م، تمثل مزيجاً من الفولكلور والخيال السحرى. وقد فازت هذه الرواية بجائزة أحسن رواية أمريكية . ولم تعتبر «تونى موريسون» نفسها كاتبة إلاَّ عندما نشرت هذه الرواية .

كان الرجال هم شخصياتها القوية فى هذه الرواية، وكان ذلك تغيُّراً كبيراً فى مسيرتها الروائية أدى إلى تعرضها لهجوم المناصرين للحركات النسائية الذين اعتقدوا أنّها تخلت عنهم .

رواية : طفل القار ..

واستحالة قيام علاقة دائمة بين رجل وامرأة كلاهما من الزنوج !!

عادت «تونى موريسون» فى رواية «طفل القار» أو «طفل من فصيلة نبات الترنيه» التى صدرت عام 1981 م للاهتمام بالمرأة الزنجية، فـ «جادين» فى هذه الرواية تعمل عارضة أزياء عالمية، ولعلها المرأة الوحيدة فى روايات «موريسون» التى استطاعت أن تُحب بعض الوقت، فهذا الرجل «صن» يموت فى حادث سيارة . وتكشف الرواية عن استحالة قيام علاقة دائمة بين رجل زنجى وامرأة من نفس الجذور، لأن الجذور القديمة تبدو ماثلة أمام الإنسان حينما يُحب . وقد خرجت «موريسون» أيضاً فى هذه الرواية من عالم الزنوج الفقير، إلى تصوير عالم المقتدرين منهم .

و لـ«تونى موريسون» أيضاً مسرحية غنائية بعنوان : «إيميت الحالمة» التى عرضت لأول مرَّة عام 1986م . إلى جانب مجموعة من المقالات بعنوان : «اللعب فى الظلام» عام 1992م .

رواية : محبوبة ..

تذبح الأم ابنتها «محبوبة» كى تخلصها من رق العبودية، فالموت الاختيارى أفضل، والقتل فى نظر الأم نوع من الحب !!

فى عام 1987 م صدرت رواية «محبوبة»، وهى قصة عبدة زنجية هاربة عندما قبض عليها ذبحت ابنتها حتى لا تراها وهى تشب فى إسار العبودية، والأم ترى أن أمام ابنتها مصيراً واحداً من اثنين، الموت أو العبودية، ولا شك أن الموت الاختيارى أفضل، ولذا فالقتل فى نظر الأم نوع من الحب !!

وقد استقبلت الرواية بترحيب واسع من النُّقَّاد والكُتَّاب والقُرَّاء، ولاقت نجاحاً منقطع النظير وفى مصر صدرت الرواية عام 1990م عن مؤسسة الأهرام وقام بالترجمة الدكتور / أمين العيوطى، الذى قدَّم ترجمة أمينة للنص الأدبى، كما كتب مقدمة قصيرة عن المؤلِّفة «تونى موريسون».

حصلت الرواية فى عام 1988م على جائزة بوليتزر فى هذه الرواية تعود الكاتبة إلى الجنوب الأمريكى فيما بعد نهاية الحرب الأهلية بين ولايتى كنتاكى، وأوهايو بسنوات قليلة حيث البيض يشعرون بزهو الانتصار، أمَّا الزنوج فإنَّهم يملأون المدن . وهناك حرب خفية بين البيض والسود، فمدارس الزنوج تشتعل فيها النيران، والرجال الكبار يُجلدون كالأطفال، أمَّا النساء الزنجيات فإنهن لا يفلتن من رجال الجيش . وفى هذا العالم يوجد منزل غريب يحمل رقم 124 تعيش فيه «سيث» العبدة سابقاً والتى تُقيم مع ابنتها «دنفر» البالغة من العُمْر ثمانية عشر عاماً، لقد أنجبت طفلة صغيرة اسمها «محبوبة» والتى تصبح شاهداً على ما يدور حولها.

إن محور الموضوع الأثير لدى «تونى موريسون» هو تصوير الصراع بين الزنوج والبيض، والزنوج ثلاثة أجيال : جيل الجدة التى تمثل الرابطة بين إفريقيا وتجربة العبودية فى الجنوب الأمريكى، وجيل الأبناء الذين لا تعرف الجدة عنهم شيئاً بعد أن بيعوا صغاراً ولم يبق منهم إلاَّ ابن واحد، وجيل الأحفاد الذى يضم أربعة أطفال أقدمت أمهم على ذبح طفلة منهم هى «محبوبة» لتشترى حرية الآخرين .

لكن الطفلة الذبيحة تُبعث فى صورة بشر لتطارد ضمير الأم . إن ما يميز «تونى موريسون» هو اكتشافها أن السحر وربما الخرافات تلعب دوراً فى الحياة، فجعلت السحر يلعب دوراً فى إبداعها الأدبى، ونحن نجد هذا واضحاً فى رواية «محبوبة» التى قامت الكاتبة ببعث إحدى شخصياتها للحياة بعد أن قُتلت، وكأنَّها الضمير أو الماضى أو جريمة قتل البراءة التى قامت بها «سيث» الأم، لتنقذ إخوتها من رق العبودية . وهذا بالطبع جزء من التراث الإفريقى الذى يؤمن بالسحر وبإمكانية عودة الموتى أو القتلى للحياة مرَّة أُخرى فى صور شتى.

يرفض الآخرون جريمة الأم فتعيش معزولة لا تتصل بأحد ولا يتصل بها أحد، حتى تُقبل إحدى بناتها على تحطيم هذا الحاجز، فيسعى الجميع إلى خلاص الأم والتئام شملها أخيراً مع العالم .

ولا شك أن عودة «محبوبة» إلى الوجود أمرة رائعة جذابة آخاذة وهى تضن التنكيل بالآخرين والثأر لنفسها، ومعايشة شخصيات الرواية لهذا العالم الميتافيزيقى الذى تأتى منه «محبوبة» وتصفه لنا وتتغنى به قد أضفى على الرواية جواً أسطورياً .

والشكل الروائى لايبدأ بالتدرُّج القصصى المعروف الذى يتسلسل فى خط زمانى مستقيم، بل يبدأ فى نهاية الحدث، هو فى «محبوبة» عبث شبحها أو روحها بأثاث البيت وأهله، وإطاحته بكل شىء . وهكذا يتداخل عالم الواقع بعالم الفانتازيا، كما تتداخل الحركة من الأمام مع الحركة إلى الخلف، وتُعبِّر اللغة التى يتداخل فيها الفعل الماضى والفعل الحاضر عن ذلك .

رواية «محبوبة» هى بانوراما تاريخية بلغة شعرية حساسة لتاريخ المرأة السوداء فى داخل إطار التجربة الزنجية فى أمريكا . والرواية ثرية فى تفاصيلها ومشاعرها فإنَّها تستعرض تاريخ الإنسان الأسود منذ أن جلبه تجار الرقيق إلى القارة الجديدة حتى وقتنا الحالى .

و «تونى موريسون» أبدعت شخصياتها فى رواية «محبوبة» لواقع المرأة السوداء، فكل منهم له مشاعره الذاتية والعامة، وكلٌّ له أفكاره الخاصة وأفكاره تجاه ما يجرى حوله .

ثم يأتى العنصر الميتافيزيقى فى الرواية ليرتفع بالعمل الأدبى كلِّه إلى مستوى الحلم. فيزيده جمالاً ويعطيه الاستمرارية والبقاء عبر الزمن المحدود، ويجعله أكثر تأثيراً فى نفس المُتلقى أو القارىء . أمَّا حوار الرواية فكأنَّه هو الواقع، إنَّه دقيق ويتفق مع منطق وفكر شخصيات الرواية.

كما ينعكس الأسلوب التراثى الزنجى فى تعدُّد الأصوات بالرواية فضلاً عن المونولوجات الداخلية الكاشفة، واللهجة الإنجليزية كما ينطقها زنوج أمريكا، ولغة حوارهم كما يتكلمونها، وهى لغة تعتمد نغمتها على الإيقاع لتُعبِّر لا عن مجتمع فقط بل عن إرث وتراث.

نصوص صغيرة من رواية محبوبة :

كانت محبوبة ترقص فى الطابق العلوى . خطوتان صغيرتان، خطوتان، خذى - خطوة - جديدة، انزلقى، واختالى إلى آخر الغرفة .

جلست «دنفر» على السرير وهى تبتسم وتسمع الموسيقى .

لم يحدث أن شاهدت «محبوبة» سعيدة هكذا أبداً .

لقد رأت شفتيها الممطوطتين استياء تنفرجان على اتساعهما بمتعة السكر أو بخبر ما نقلته إليها «دنفر» . لقد شعرت بالرضاء الدافىء يشع من جلد محبوبة حين تصغى إلى أمها تتحدث عن أيام زمان . لكنها لم تكن قد رأت الابتهاج أبداً . لم تكن عشر دقائق قد انقضت منذ انطرحت «محبوبة» إلى الخلف على أرض الحجرة، وقد جحظت عيناها، وهى تتطوح وتمسك بحلقها، والآن بعد أن رقدت بضع ثوان فى سرير «دنفر» نهضت وراحت ترقص ..

سألتها «دنفر»: أين تَعلَّمتِ الرقص؟!

أنا المحبوبة.. وهى لى «سيث».. هى التى قطفت الأزهار .. الأزهار الصفراء قبل الانحناء.. قطفتها من أوراقها الخضراء.. هى الآن على اللحاف حيث تنام .. كانت «سيث» تبتسم لتوها لى عندما أتى الرجال وأخذوها إلى ضوء الشمس مع الموتى، ودفعوا الموتى إلى البحر «سيث» ذهبت إلى البحر، لم يدفعوها، هى ذهبت، كانت تستعد

للابتسام لى، وعندما رأت الموتى يدفعون إلى البحر، ذهبت إلى هناك، وتركتنى وحيدة فى حالة انتظار !!

رواية : جاز ..

قصة فتاة سوداء حسناء وفقيرة، ترتبط عاطفياً بعجوز زنجى يُقدِّم لها كل شىء إلاَّ الحبّ الحقيقى، فتخونه مع فتى صغير فى مثل عُمرها، فيقتلها العجوز !!

صدرت هذه الرواية فى عام 1992م، واستمرت لأسابيع عديدة على قائمة الكتب الأكثر مبيعاً فى الولايات المتحدة الأمريكية .

فى أحداث رواية «جاز» تعود الكاتبة «تونى موريسون» إلى سنوات العشرينيات من القرن المنصرم بعد أن انتهت الحرب العالمية الأولى بأشهر قليلة، كانت أوروبا فى ذلك الوقت لا تزال مغطاة بغبار الحرب، أمَّا الأمريكيون فلم يكونوا يكفون عن الغناء على موسيقى الجاز .. هذه الموسيقى ولدت أولاً فى الجنوب، وعلى أيدى الزنوج، ثم لم تلبث هذه الموسيقى أن انتشرت حول العالم، وحول هذا الفن فى حياة الزنوج أبدعت «تونى موريسون» روايتها .

تقول «تونى موريسون» فى مجلة «لو نوفيل أوبسرفاتور» العدد الصادر بتاريخ الأول من شهر يونيو عام 1993م : «لقد تصورنا بشكلٍ خاص أن هذه الموسيقى كانت تُمثِّل شباب الزنوج فى ذلك العصر، لقد كانت الموسيقى بمثابة انفجار عرقى سمحت لجميع الأجيال بالتلاقى على اختلاف مشاربهم، فقبل موسيقى الجاز كانت لنا عادات مختلفة، والآن اختلف الأمر فيما يتعلق بمراسيم الزواج، ونحن مثلاً نتزوج لأنَّنا نختار شركاء حياتنا . إنَّها موسيقى تُقارب بين البشر، موسيقى تجعل كل طرف يهرول باحثاً عن الآخر».

فى رواية «جاز» هناك امرأتان من جيلين مختلفين، ورجل واحد، الفتاة الصغيرة تُسمىّ «دور كاس»، لم تتعد الثامنة عشر من عُمْرها . وهى تختلف عن النموذج القزمى فى روايات «تونى موريسون» السابقة، فهى فتاة حسناء، وناهدة، وجاذبة للرجال، لكنها فقيرة، تحتاج إلى المال، ولذا فهى توافق أن ترتبط عاطفياً برجل فى الخمسين

من العُمر، متزوج بامرأةٍ فى نفس عُمره. وترى المؤلِّفة أن عالم الزنوج فى داخله أكثر قسوة من عالم يجمع بين البيض والزنوج. فالرجل الذى يُدعّى «جو» والذى يعمل بائعاً متجولاً، يحب الفتاة، فيقدِّم لها الهدايا وكل شىء هى محرومة منه. لكن لا يهبها ما تنشده ألاَّ وهى مشاعر الحب الحقيقى، وعلى هذا فالفتاة الصغيرة تتمنى أن يحبَّها شاب فى مثل سنها، ولو كان ذلك بشكلٍ مجانى.

حب «جو» للفتاة «دوركاس» حُبّاً يتسم بالعصبية، من النوع الذى يجعله سعيداً وحزيناً، والفتاة بالفعل تقع بدورها فى حبِّ شاب صغير، يمنحها ما عجز العجوز عن منحها إياه، يكتشف «جو» تلك العلاقة، وبمزيج من الغضب واليأس يقتلها، لكنها ترفض وهى تحتضر أن تعترف بشخصية قاتلها!!

ولمَّا كانت زوجة «جو» والتى تُدعى «فيوليت تريس» Violet trace تتسم بالعصبية أيضاً فهى تذهب إلى الجنازة وهى تحمل ساطور جزار للتمثيل بجثة الفتاة «دور كاس» وهى تصيح فى الجثة متسائلة : ألاَّ تدافعين عن رجلكِ ؟. لكن يُحال بينها وبين ذلك، ويطرودونها من الجنازة، ويطلقون عليها لقب «فايولينت» أى العنيفة ،بدلاً من اسمها الحقيقى «فيوليت» أى البنفسجية.

والحبكة الروائية تكشف عن وفاق خرافى حزين بين «جو» و«فيوليت» على جثة الفتاة «دور كاس» . ولمَّا كان «جو» لم يُقدَّم للمحاكمة عن جريمة القتل التى ارتكبها لأن الضحية لم تعترف به . فإنَّه يستطيع مواصلة دوره الروائى، بينما تستولى «دور كاس» على حياة الزوجة «فيوليت» . لهذا تتعلَّم «فيوليت» الرقصات التى كانت ترقصها «دور كاس» . كما كانت تضع صورتها فوق رف المدفأة حيث تستطيع هى «وجو» أن يقفا على أطراف أصابع أقدامهما فوق مشمع أرضية حجرة الصالون ليحدقا فيما يبدو لهما أنَّه الشىء الحى الوحيد فى البيت!!

وهكذا نلاحظ أن من أبرز التيمات المُلِحَّة فى العالم الروائى «لتونى موريسون» هو أن الأموات لا يُفارقون الأحياء، بل هم على صلةٍ بهم من نوعٍ ما . وتلك إحدى سماتها الروائية المستمدة بلا شك من تراثها الإفريقى العتيد.

قراءة فى أسلوب تونى موريسون الإبداعى:

فى معظم روايات «تونى موريسون»، نحن دائماً أمام نفس المرأة الزنجية من خلال ثلاثة أجيال من النساء، الجيل الأول : الذى عاش سنوات العبودية، أو قارب ذلك . أمَّا بنات الجيل الثانى فيحاولن نسيان هذا الزمن القمىء، ويصنعن عالماً خاصاً يحاولن من خلاله صناعة هُوّية ثقافية واجتماعية خاصة مثل : موسيقى الجاز . أمَّا فتيات الجيل الثالث فهن أكثر تحرُّراً وسعادةً، لكنهن تبعاً للعصر أكثر معاناة . ولذا، فرغم أن الماضى بالغ القسوة فإنَّه أكثر رحمة من الواقع الراهن . وعليه فإن روايات الكاتبة مليئة بالحنين إلى سنوات العشرينيات . وترى «موريسون» أن عشرينيات القرن المنصرم هى بمثابة العصر الذهبى للزنوج رغم الاضطهاد العنصرى ورغم المعاناة الشديدة للسود، ذلك أن الاضطهاد الذى عاشوه جعلهمْ أكثر تكاتفاً وتماسُكاً . وقد ساعدهم ذلك على ابتداع فنونهم الخاصة، وذلك فى فترةٍ كان مخرجو السينما إذا أرادوا أن يستعينوا بممثل أسود فإنَّهم يطلون وجه ممثل أبيض بالفحم !!

وفى جميع روايات «تونى موريسون» تحاول استكشاف الصِّراع بين الفرد والمجتمع، سواء مجتمع البيض أو السود . وهى وفية لأصلها الإفريقى الذى تُخلص له وتدافع عنه فى أعمالها .

وقد استطاع أدب «تونى موريسون» أن يُجبر كثيرين على الاعتراف بوجود آخر منسى، متناسى، منبوذ .. أو أحياناً مغضوب عليه ومحتقر، والأهم من ذلك أنَّها استطاعت أن تجعل تجربة جماعية ما - وهم الأمريكيون السود - واقعية، بل واقعية وحميمة لمن هم خارج تلك الجماعة .

و «تونى موريسون» تتميَّز بقدرة فائقة على التعبير لأنَّها تدخل فى أعماق اللغة نفسها، هذه اللغة التى تريد تحريرها من العقبات التى يقيمها العرف . أمَّا عالمها الأدبى فهو يعج بالتجربة الشخصية التى تعيشها على السطور، كما أن عالمها الروائى عالم ضيق بالغ الخصوصية، متكرر، ولكنه من طراز الآداب العملاقة التى ناصرت قضايا الزنوج .

و «تونى موريسون» ذات أسلوب شعرى جذاب، ولديها إيمان مطلق بأن الاتصال يُحقق التلاقى، ومع التلاقى يتولَّد الاقتناع وتتشكَّل الرَّغبة فى التغيير نحو الأفضل .

وعندما سُئلت «تونى موريسون» ذات يوم عن لحظة الإبداع لديها، أو بمعنى أدق عن صنعة الكتابة قالت : «أعرف دائماً الحكاية عندما أبدأ الكتابة، وهذا ليس بالأمر الصعب، فأى كاتب يمكنه أن يصل إلي حكاية، أمَّا الصعب حقاً فهو إعطاء حياة لشخصيات القصة . إعطاء مساحة لهم، فأنا أملك ستة وعشرين حرفاً من الأبجدية ولا أملك الألوان ولا الموسيقى، لذا يكون من الواجب علىَّ استخدام الصيغة التى تجعل القارئ يرى الألوان ويستمع إلى الموسيقى» .

هذه هى قراءة سريعة لأسلوب «تونى موريسون» الإبداعى، الروائية التى تستيقظ مع الساعات الأولى للفجر، وتبدأ فى الكتابة بعمق وحميمية، وتقرأ الروايات البوليسية عندما تُريد أن تلتقط أنفاسها أو تستريح .

«تونى موريسون» .. فى ميزان النقد الأدبى :

«لا أحد يكتب بجمال مثل «تونى موريسون» .. فهى دائماً وباستمرار تكشف أمور وقضايا التركيبة المُعقَّدة والرُّعب والحبّ فى حياة الأمريكيين السود هذا ما صرَّحت به الكاتبة «أليس ووكر» .

ويصفها أحد الكُتَّاب أيضاً بأن حكاياتها رحلات استكشافية بالنسبة للكاتب والقارئ، تكمن قوتها فى استخدام عدسة المنشور الأمريكى الإفريقى والتجربة النسائية لتحريض الآخرين على طرح الأسئلة الحارقة والمؤلمة .

وقصص «تونى موريسون» نمطية تملأها البساطة من فوق السطح ولكنها مليئة بالاعتراضات والتناقضات بين الخير والشر، بين القبح والجمال، بين الحبّ والموت، وتلك سمات موجودة بشكلٍ واضح فى رواياتها .

وتقول «ميشيكو كاكوتانى» المحررة الأدبية بصحيفة «نيويورك تايمز»: إن «تونى موريسون» فى رواياتها الست التى تنفتح لتحيط بـ 300 سنة من التاريخ الأمريكى، قد غزلت فظائع العبودية وتراثها العاطفى والروحى فى ميثولوجيا خاصة بها مغزولة بحدة وإنجازها هنا يوجد فى خلق جسد من العمل يقف مشعاً على قدميه كأسطورة أمريكية أكثر ممَّا يوجد فى توفير بديل لأدب أمريكا البيضاء التقليدى المعترف به .

وفى قصص «تونى موريسون» أشباح وعرائس السحر، وفيها أُناس يسقطون من النوافذ، وحقائب ملأى بالعظام تتدلى من السقف، وأجساد تتأرجح مُعلقة بالأشجار. وفى رواية «موريسون» «أغنية سليمان» وكيل تأمينات يقفز من سطح مستشفى فى محاولة مجنونة لكى يطير، وفى «سولا» تقترن عودة البطلة إلى موطنها «بوباء طائر أبى الحناء». وأبطال «موريسون» يعتبرون هذه الأحداث الفانتازية حتمية الوقوع، فقد تعوَّدوا على العيش فى عالم تبدو الأشياء العادية فيه بعيدة المنال. وهم يرتبطون بوثاقٍ حميم بتاريخ كان سوريالياً فى قسوته وخداعاته.

وتتحدث الناقدة «كاكوتانى» عن شخصيات «تونى موريسون» التى لا يمكن أن ينساها القارئ، فتشير إلى «ميلكمان» الذى ظلَّ يرضع ثدى أمه لفترةٍ طويلةٍ بعد تخطيه سن الطفولة، و«سون» الذى يجوس مستنقعات جزيرة كاريبيه بحثاً عن فتاته - إلاَّ أن نساءها - كما تؤكِّد الناقدة، هنَّ اللائى يقمن إقامة دائمة فى ذهن القارئ.. الجدة فى «سولا» التى تمدّ رجلها أمام قطار حتى تستطيع أن تعيش بعشرة آلاف دولار قيمة التعويض عن الحادث الذى ستحصل عليه، و«جادين» فى«طفل القار» التى تبلغ قدراً من الجمال يجعل البنات البيضاء يختفين، والنساء المسنَّات فى «العين الأشد زُرقة» اللاتى تحرَّرن من الشبق وإفراز اللبن، وتجاوزن الدموع والرعب، واللاتى كن طاعنات فى السن إلى حد يجعلهن مزعجات وقتها، وأينما شئن، ومتعبات إلى حدٍّ أنهنّ يتطلَّعن إلى الموت، ولا مباليات إلى حدِّ قبول فكرة الألم فى الوقت الذى يتجاهلن فيه الألم.

«تونى موريسون».. تفوز بجائزة نوبل فى الأدب:

مؤشرات الفوز:

حصول الكاتبة الأمريكية السوداء «تونى موريسون» على جائزة نوبل فى عام 1993م من القرن المنصرم يُعطى مجموعة من المؤشرات المهمة للغاية، من هذه المؤشرات: أننا أمام كاتبة من الجنوب الأمريكى، والغريب أن هناك مذاقاً خاصاً لهذا النوع من الأدب. وكأنَّه يؤكِّد أن الأدب بالفعل ابن بيئته، وأنَّه يمكن تقسيمه جغرافياً بسهولةٍ فى أى مكان بالعالم، وخاصة فى البلاد متسعة الأراضى مثل الولايات المتحدة

الأمريكية، فقد ساعدت الطبيعة، والميراث التاريخى، أبناء هذا الجنوب على صناعة أدبهم الخاص. فى البداية تصوَّر البعض أنَّه أدب زنجى فى المقام الأول، من أهم أبنائه : «جيمس بولدوين»، و «ريتشارد ويسلى»، و «تونى موريسون» .

صباح الفوز يا تونى !

مكالمة هاتفية أيقظت «تونى موريسون» من نومها العميق صباح الخميس السابع من أكتوبر 1993م من إحدى صديقاتها، المكالمة غير المتوقعة أصابتها بنوع من الرجفة والقلق، ففى هذا الوقت من اليوم لا تحمل المكالمة الهاتفية سوى أخبار الفواجع أو الكوارث !!، لكن هذه المَّرة كانت الجائزة الكبرى تطرق بابها . ثم ها هو مسؤول لجنة نوبل يهاتفها وهو يزف لها الخبر القنبلة، لم تصدق، طمأنها وأخبرها أنَّهم سوف يرسلون لها خطاباً رسمياً يتضَمن فوزها بنوبل، قالت «تونى موريسون» بلهفةٍ وعفوية : هل يمكن أن ترسلوا الخطاب بالفاكس !؟

وبعد أن تأكَّدت من صحة الخبر الذى راحت وكالات الأنباء المحلية والعالمية تتناقله بسرعة البرق، لم تستطع «تونى موريسون» أن تُخفى سعادتها، فهى كأمريكية سوداء تشعر أن فوزها يأتى كضربة قاضية، أمَّا الأكثر أهمية، فهو أن أمَّها سوف تشاركها فرحة الفوز .

وقد أعلنت الأكاديمية السويدية :

«أن تونى موريسون تقدم عملاً روائيًا استثنائيًا من حيث حبكته وتنوعه.. لذا تُمنح الجائزة لمقدرتها الإبداعية وأسلوبها الشعرى الذى يحاول رسم جانب مجهول من الواقع الأمريكى» .